زاد المسافر

شعر

حسن كامل الصيرفي

زاد المسافر

شعر

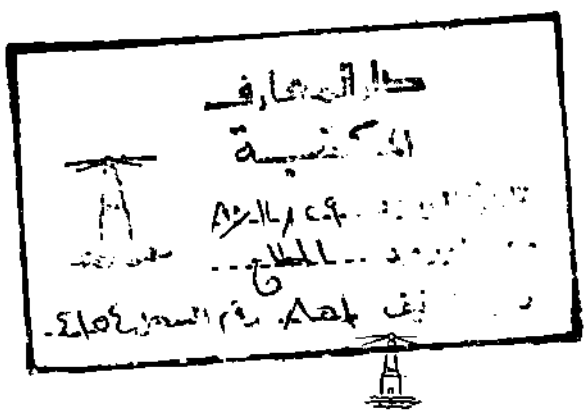

دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

الإهـــداء

إلى الذين سَبَقُونى فى هذه الرِّحلة
وإلى الذين سَيَلْحَقُون بنا
أُقدِّم هذا الزَّادَ من قلبى ورُوحى

حسن كامل الصيرفى

مُسَافِرٌ بِلاَ حَقَائِب

●

مُسَافِرٌ بِلاَ حَقَائِبْ ؟
عَجِيبَةُ الْعَجَائِبْ . . !
رَنَّ بِمَسْمَعِي السُّؤَالْ
فَابْتَسَمَتْ
وَقُلْتُ لِلحَمَّالْ : يا حَمَّالْ !

هَلْ تُرِيدْ
أَنْ أَحْمِلَ ٱلأَعْبَاءَ وَٱلأَثْقَالْ
مِنْ جَدِيدْ ؛
لِعَالَمِ ٱلجَمَالِ والكَمالْ ؟
هل عَرَفْتْ ؟

●

أَرَدْتُ أَلاَّ أَحْمِلَ ٱلمَتَاعِبْ
من عالَمِ ٱلغُيُومِ والشَّوَائِبْ

لأنَّنِي نَفَضْتْ

يَدَىَّ مِنْ تَوَافِهِ الرَّغَائبْ
وهأنَا مُسَافِرٌ بِلاَ حَقَائبْ

فهَلْ عَرَفْتْ ؟

●

هل عَرَفْتَ يا حَمَّالْ
ما أُرِيدْ ؟
وها هِيَ الأَحْمَالْ
لاتُفِيدْ !

●

تَرَكْتُ فَوْقَ أَرْضِيَ المَصَائبْ
وهأَنَا مُسَافِرٌ بِلاَ حَقَائبْ !
بِلاَ حَقَائِبْ . . . بِلاَ مَتَاعِبْ !

قد مَضَيْتْ . . .
وَارْتَحَلْتْ . . !

ذِكْرَى

● مهداة إلى روح أخى المجاهد السودانى الشاعر « توفيق أحمد البكرى » الذى رحل من عالمنا فى السابع والعشرين من يولية سنة ١٩٦٨ تاركاً فى نفوس محبِّيه أجمل ذكرى .

إذا رَحَلْتُ عن مَدَارِ صاحِبِى ، وعَنْ جِوَارِهْ
هل يَذْكُرُ الصَّاحبُ فى ٱلخَيَالِ عَهْدَ جَارِهْ . . . ؟
لَعَلَّنِى . . . لَعَلَّنِى أَخْطِرُ فى ٱدِّكَارِهْ

●

ما أَجْمَلَ ٱلوَفَاءْ ! لا الرِّثَاءْ فى ٱلمَنَابِرْ
ما أَجْمَلَ الدُّمُوعْ ! لا الشُّمُوعْ فى ٱلمَقَابِرْ
فى خَطْرَةٍ أو ذُكْرَةٍ أَمُرُّ بٱلخَوَاطِرْ
لَعَلَّنِى . . . لَعَلَّنِى أَخْطِرُ فى ٱدِّكَارِهْ

●

ياصاحِبِى ! . . . يا صاحِبِى ، ما أَجْمَلَ ٱلوَفَاءْ !
عاشتْ نُفُوسٌ عَزَّ فى وُجُودِهَا ٱللِّقَاءْ
وٱرْتَحَلَتْ مِنْ عالَمِى ، ولم يَزَلْ لها بَقَاءْ
فى خاطِرِى . . . فى مُهْجَتِى . . . لم يَمْحُها ٱلفَنَاءْ
فهل يَظَلُّ صاحِبِى أَخْطِرُ فى ٱدِّكَارِهْ ؟

القِيَاس

●

لأَنَّنَا نَعِيشُ فى دَوَائِرِ ٱلقِيَاسْ
فى مَنْطِقِ الزَّمَانِ والمَكَانِ
نَقِيسُ طُولَ ٱلعُمْرِ بالثَّوانِى
تَدِقُّ عن أَفْهَامِنَا ٱلمَعَانِى
نَقِيسُ – كلَّ مانَقِيسُ – بالدَّقَائِق

فتختفى - وَرَاءَ وَهْمِنا - ٱلحقَائقْ
لأَنَّنَا نَعِيشُ فى دَوَائِرِ ٱلقِيَاسْ

●

نَـقِـيسُ - بـالأَمـتـارِ والأَمْـيَـالِ - كـلَّ بُـقْـعَـهْ
ونَرْشُقُ الطَّرِيقَ - كلَّ خُطْوَةٍ - عَلامَهُ
نَكَادُ حَتَّى أَنْ نَقِيسَ الابْتِسَامَهْ
بِٱلعَرْضِ أَو بالطُّولِ ، أَو نَقِيسَ قُطْرَهَا !
لا نُخْطِئُ ٱلمِقْيَاسَ والتَّقْدِيرَ ! . . حَتَّى الدَّمْعَهْ

نَكَادُ – بِٱلمِيزَانِ – أَنْ نَحُدَّ قَدْرَهَا
لأَنَّنَا نَعِيشُ فى دَوَائِرِ ٱلقِيَاسْ

●

نَقِيسُ طُولَ ٱلعُمْرِ بِٱلإِقَامَهْ
نَقِيسُ فى ٱلمَنَامِ طُولَ ٱلقَامَهْ
فَثَمَّ مَهْدٌ للوَلِيدِ طُولُهُ ذِرَاعْ . . .
يَطُولُ حِينَ يَبْلَغُ ٱلفَتَى ٱليَفَاعْ...
حتّى إِذَا ما أَقْبَلَ الرَّحِيلُ وٱلوَدَاعْ

نَقِيسُ حتى حُفْرَةَ الأَرْمَاسْ
لأَنَّنا نَعِيشُ فى دَوَائِرِ ٱلقِيَاسْ

●

قد نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعِيشَ أَلْفَ عامْ
كما يَعِيشُ ٱلحُلْمُ فى مَسَارِحِ ٱلمَنَامْ
ويَقْطَعُ العَوالِمَ ٱلكثِيرَه
ويَخْلُقُ ٱلحَوَادِثَ ٱلكَبِيرَهْ

وهُوَ ٱبْنُ لَحْظَةٍ صَغِيرَهْ
إذَا خَرَجْنَا عن دَوَائِرِ ٱلقِيَاسْ !

حُبُّ الحياة

●

لأَنَّنَا نَعِيشُ فى ٱلوُجُودِ بالجُسُومِ مَرَّهْ
نَخَافُ أَنْ نَمُوتَ ٱلْفَ ٱلْفِ مَرَّهْ !
فَنَجْرَعُ الدَّوَاءَ : حُلْوَهُ ومُرَّهْ
ونَطْلُبُ الشِّفَاءَ صِحَّةً وقُدْرَهْ . . .
وهٰذِهِ ٱلحَيَاةُ : شَهْقَةٌ وزَفْرَهْ !

●

نَعِيشُ فَوْقَ أَرْضِنا عَنَاكِبْ
نَبْنِي شَوامِخَ ٱلبُيُوتْ
لأَنَّنا نَخَافُ أَنْ نَمُوتْ
بُيُوتُنا بُيُوتُ عَنْكَبُوتْ
تُفْضِي بِنَا وبآلمُنَى إِلَى خَرَائبْ !

●

ونَحْنُ فى ٱلحَيَاةِ قد نَمُوتُ أَلْفَ مَرَّهْ
مِنْ خَوْفِنَا وحِرْصِنَا على ٱلْحَياةِ ، وَهْيَ مُرَّهْ !

قَصَائدى الأَخيرة

● يسألنى بعض الرِّفاق : لماذا أُكثِرُ الآن من نظم القصائد القصيرة فى الأبْحُرِ الصغيرة ؟ فإليهم الجواب . . . .

قَصَائِدِى ٱلأَخِيرَهْ مُوجَزَةٌ ، قَصِيرَهْ
مِنْ أَبْحُرٍ رَاقِصَةٍ كَمَوْجَةِ ٱلبُحِيرَهْ
كَأَنَّهَا ٱنْفِرَاجَةٌ مِنْ شَفَتَىْ صَغِيرَهْ
عن لَفْظَةٍ حَيَّةٍ وَبَسْمَةٍ غَرِيرَهْ
سَامِيَةٌ بِرُوحِهَا عَالِيَةٌ ، طَهُورَهْ
حَمَّلْتُهَا فى رِقَّةٍ : خَوَاطِرِى ٱلنَّثِيرَهْ
تَأَمُّلَاتِىَ ٱلسَّبَّاحَةَ ، ٱلشَارِدَةَ ، ٱلنُّفُورَهْ
أَحْلَامِىَ ٱلهَادِئَةَ ، ٱلـ ـنَّاعِمَةَ ، ٱلقَرِيرَهْ . . .
آمَالِىَ ٱلمَكْبُوتَةَ ، ٱلمَحْبُوسَةَ ، ٱلأَسِيرَهْ
أَوْهَامِىَ ٱلسَّاخِرَةَ ، ٱلثَّائِرَةَ ، ٱلمُثِيرَهْ
آلامِىَ ٱلمُوَارَةَ ، ٱلدَّفَّاقَةَ ، ٱلكَثِيرَهْ

أَحْزَانِىَ الصَّامِتَةَ ، الدَّامِعَةَ ، الْغَزِيرَهْ
مابَانَ فى الْجُفُونِ ، أَوْ ماغابَ فى السَّرِيرهْ
عابِرَةٌ مِنْ عالَمٍ أَضْيَقَ مِنْ حَفِيرَهْ
إِلَى مُحِيطٍ واسعٍ فى الْفَجْوَةِ الْكبيرَهْ . . .

●

قَصَائِدى الْقَصِيرَهْ أَنْفَاسِىَ الْأَخِيرَهْ
كَوَمْضَةِ الْمِصْبَاحِ فى الْتِلاَقَةٍ مُنِيرَهْ
فى خَفْقَةٍ مُسْرِعَةٍ ، لاَهِثَةٍ ، قَصِيرَهْ . . .

زَادُ المُسَافر

●

هٰذَا ٱلمُسَافِرُ بَعْدَ طُولِ صِرَاعِ
فى عالَمِ ٱلآلَامِ وٱلأَوْجَاعِ
ماضٍ كأَحْلَامِ الصَّبَاحِ تَزُفُّها
زُمَرٌ مِنَ ٱلأَنْغَامِ وٱلأَسْجَاعِ

ماضٍ كإشْعَاعِ ٱلغُرُوبِ ، وخَلْفَهُ
ذِكَرٌ يَسِرْنَ على مَدَى ٱلإشْعَاعِ
ماضٍ كما تَمْضِى السَّفِينَةُ فى الدُّجَىٰ
فى صَفْقِ مِجْدَافٍ وخَفْقِ شِرَاعِ
ماضٍ كدَمْعَةِ عاشِقٍ رَقْرَاقَةٍ
فى مُقْلَتَيْهِ ، تَسِيلُ إثْرَ وَدَاعِ
ماضٍ كنَغْمَةِ نافِخٍ فى نايِهِ
فى ٱلغَابِ ، أو شَبَّابَةٍ[1] للرَّاعِى
وٱلفَجْرُ يَحْمِلُها صَدًى مُتَرَدِّداً
بَيْنَ ٱلجِوَاءِ مُحَبَّبَ ٱلإيقَاعِ

---

(١) الشَّبابة : قصبة الزَّمْر . لفظة مُوَلَّدة .

ماضٍ كقُبْلَةِ خائفٍ مُتَرَقِّبٍ
لَحْظَ ٱلعُيُونِ ، ولَهْفَةَ ٱلأَسْمَاعِ
ماضٍ كَهَمْسَةِ حائرٍ فى مَهْمَهٍ ؛
ماضٍ كصَرْخَةِ غارِقٍ فى ٱلقَاعِ
ماضٍ عن الدُّنْيَا وسِحْرِ بَرِيقِها
بَعْدَ التَّعَلُّقِ بالسَّنَا ٱلخَدَّاعِ
نَفَضَ ٱلَيَدَيْنِ ؛ فزَادُهُ فى قَلْبِهِ
لم تَقْتَرِبْ مِنْهُ ظِلَالُ ضَيَاعِ
زَادٌ تَجَرَّدَ مِنْ شَوَائبِ أَرْضِهِ
وصِرَاعِها فى الشَّرِّ أَىَّ صِرَاعِ

---

(١) المَهْمَهُ : البلد المُقْفِر .

زادُ ٱلمُسَافِرِ : عِفَّةٌ ومَحَبَّةٌ
وتَرَفُّعٌ عن حَمْأَةِ[1] ٱلأَطْمَاعِ

زادٌ عَلَيْهِ مِنَ ٱنْطِلاَقِ خَيَالِهِ
سِعَةُ السَّمَاءِ ، ووَمْضَةُ ٱلإِبْدَاعِ

زادٌ عَلَيْهِ مِنَ ٱلمَلاَئِكِ مِسْحَةٌ ؛
ومِنَ ٱلجِنَانِ عَلَيْهِ ضَوْءُ شُعَاعِ

بَرِئَتْ سَمَاحَتُهُ ، وصُفِّيَ ماؤُها
مِنْ كُدْرَةٍ وتَصَنُّعٍ وخِدَاعِ

عاشَ ٱلحَيَاةَ حَقِيقَةً مَجْلُوَّةً
لم يُخْفِ وَجْهَ ٱلحَقِّ خَلْفَ قِنَاعِ

(١) الحَمْأَةُ والحَمَأُ : الطِّينُ الأسود المُنْتِن .

لم يَجْرِ فى رَكْبٍ يُزَيِّفُ خَطْوَهُ
بِمَدَائِحِ ٱلْخُدَّامِ وَٱلْأَتْبَاعِ
ٱلزَّامِرِينَ لِكُلِّ رائدِ مَوْكِبٍ
وَٱلْهَاتِفِينَ لِكُلِّ واسِعِ باعِ
فإِذَا تَغَيَّرَتِ ٱلْوُجُوهُ تَغَيَّرُوا
فى طَبْعِ حِرْباءٍ وثَوْبِ أَفَاعِ

●

هٰذا ٱلْمُسَافِرُ بَعْدَ طُولِ صِرَاعِ
ما بَيْنَ ذُؤْبَانٍ وبَيْنَ ضِبَاعِ

جازَ الطَّرِيقَ وفى يَدَيْهِ قَلْبُهُ
مِثْلَ النَّدَىٰ ٱلمُتَأَلِّقِ ٱللَّمَّاعِ
بَلَغَ ٱلمَدَىٰ ، فتَذَكَّرُوهُ لَحْظَةً
فى صَمْتِ مُدَّكِرٍ ، وزَفْرَةِ ناعِ !

أُخُوَّةٌ كالصَّلاَة !

●

● إلى روح أخى الحبيب « سامى الجِسْرِىّ – رئيس تحرير « المقتطف » فى سنواته الأخيرة – الذى ظلَّت أُخوَّتنا أربعين سنةً كأنها صلاةٌ خالصة لوجه الله لم يَشُبْها زيفٌ أو رياء ، أرفع هذه الأبيات فى عالمها الهادئ الخالد الذى انتقلت إليه فى اليوم الثالث والعشرين من يونية سنة ١٩٧٠ .

●

كلُّ شيءٍ إلَى نَفَادٍ مُبَدَّدْ
ما عَلَى الأَرْضِ سَرْمَدٌ ومُخَلَّدْ
نَحْنُ نَلْهُو على بَرَاكِينَ تَغْلِى ،
وضِيَاءٍ يَخْبُو ، وأَمْنٍ مُهَدَّدْ
باتَ فيها الأَحْيَاءُ أَمْوَاتَ خَوْفٍ
فاغِرٍ فاهُ ، والَّذِى ماتَ يُحْسَدْ
فَاسْتَرِحْ مِنْ عَنَائِها وأَسَاها
فَلَقَدْ عِشْتَ مُتْعَبَ الجِسْمِ مُجْهَدْ

●

يا أَخَ الصَّفْوِ ! . . والأُخُوَّاتُ شَيْءٌ
نادِرٌ فى الحَيَاةِ ، أَوْ كادَ يَنْفَدْ

لم يَغِبْ عن حَدِيثنا مِنْكَ ذِكْرٌ
أَو يَغِبْ عن خَيَالِنَا لك مَشْهَدْ
كُنْتَ كالبسْمَةِ الحَيِيَّةِ فى الثَّغْـ
ـرِ ، وكُنْتَ الوَفَاءَ حَيًّا مُجَسَّدْ
قَلْبُكَ المُخْلِصُ المُطَهَّرُ مَعْبَدْ
– يَتَجَلَّى فيهِ الصَّفَاءُ – ومَسْجِدْ
حَيْثُ يَمْشِى «عِيسَى» بِغُصْنِ سَلَامٍ ،
يَتَلَقَّاهُ بالأَمَانِ «مُحَمَّدْ» . . . .

أَخٌ كالأَذَان !

●

● أُلقيت فى ذكرى الشاعر الروائى الفنّان « على أحمد باكثير » الذى فارق الحياة فى العاشر من نوفمبر سنة ١٩٦٩ بعد جهاد عنيف قدَّم خلاله ثروةً أدبية للشعر والمسرح ، وكان لى حظ تقديم باكورة أعماله سنة ١٩٣٤ عند قدومه إلى مصر.

●

حادِىَ الرَّكْبِ ! ما لِرَكْبِكَ رَجْعَهْ
قِفْ قليلاً حتى أُودِّعَ جَمْعَهْ !
ضاعَ مِنِّى الشَّبابُ ، والذِّكَرُ الحُلْـ
ـوَةُ مِنْهُ ، ولم تَزَلْ غَيْرُ لُمْعَهْ
والرِّفَاقُ الأَحبابُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ
يَتَوارَوْنَ دُفْعَةً بَعْدَ دُفْعَهْ
وفُؤَادِى فى إِثْرِهِمْ يَتَلَاشَى
بَضْعَةً ، إِثْرَ بَضْعةٍ ، إِثْرَ بَضْعَهْ
وأَنا فى الطَّرِيقِ أَقْفُو خُطَاهُمْ
مِثْلَ ظِلٍّ يَغِيبُ ، أَو ضَوْءِ شَمْعَهْ
ما اَحْتِرَاقِى ، ما لَوْعَتِى ، ما رِثَائِى
غَيْرُ إِحْسَاسِ مَنْ أُصِيبَ بِفَجْعَهْ !

وَٱحْتِرَاقِى ، وَلَوْعَتِى ، وَرِثَائِى
– يا أَحِبَّاءُ – دَمْعَةٌ ، أَىَّ دَمْعَهْ !
قد ذَهَبْتُمْ ، وخَلْفَكُمْ فى حَيَاتِى
صَدْعُ قَلْبِى ... ولن أُرَمِّمَ صَدْعَهْ ...

●

وَأَخٌ ، كالأَذَانِ فى هَدْأَةِ ٱلفَجْـ
ـرِ ، سَرِيًّا[1] يُفِيضُ للصُّبْحِ نَبْعَهْ
سارَ فى الرَّكْبِ كالشُّعَاعِ المُوَلِّى
نافِضاً للحَيَاةِ زائلَ مُتْعَهْ

(١) السَّرِىُّ : الجَدْوَل . والنهر الصغير .

تاركاً فى النُّفُوسِ ظِلَّ وُجُومٍ ،
مُورِياً فى القُلُوبِ أَفْدَحَ لَوْعَهْ
كان رُوحاً . . . وكان طَيْفَ سَلَامٍ
عابِراً مُنْشِداً على الكَوْنِ سَجْعَهْ
سارِياً كالنَّسيمِ فى لَيْلِ صَيْفٍ
هادئاً . . . ناعِماً ، يُرَطِّبُ رَبْعَهْ
ناقلاً مِنْ أَزَاهِرِ الرَّوْضِ طِيباً ،
ناشراً مِنْ نَوافِحِ الطِّيبِ ضَوْعَهْ(١)
حامِلاً قَلْبُهُ على رَاحَتَيْهِ
صُورَةً مِنْ مَلَائكِ اللهِ طَلْعَهْ

(١) ضَوْع العطر : انتشار رائحته .

راوِياً . . . عارِضاً على النَّاسِ دُنْيَا
مِنْ نِضَالٍ ، ومِنْ صِرَاعٍ وخُدْعَهْ
مَسْرَحٌ شادَهُ رُؤًى مِنْ خَيَالٍ
مُسْتَعِيرٍ من الحقَائقِ رَوْعَهْ
صادِقَ القَوْلِ ، صادِقَ الشِّعْرِ صَفْوًا
لم يُخَالِفْ فى فَنِّهِ الحَقِّ طَبْعَهْ
لَيْسَ رَصْفاً من حَيْثُ تُلْقِى الأَعَا
صيرُ رُكَاماً ، وليس زَيْفاً وصَنْعَهْ
مُؤْمِناً بالنَّقَاءِ فى كلِّ فَنٍّ ،
جاعلاً صِدْقَهُ – مع الدِّينِ – شَرْعَهْ...

يا « عَلِىٌّ » ! . . . وكُنْتَ حَقًّا عَلِيًّا
فى ٱلأُخُوَّاتِ وٱلمَوَدَّاتِ رِفْعَهْ
الثَّلاثُونَ مِنْ سِنِى ٱلعُمْرِ وَلَّتْ
بِوَفَاءٍ فى سُرْعَةٍ أَىَّ سُرْعَهْ !
قد شَرِبْنَا فيها أَفَاوِيقَ[1] وُدٍّ
لم تُعَكِّرْ بشَائبٍ مِنْهُ جُرْعَهْ
غَيْرَ يَوْمِ الوَدَاعِ ، والنَّعْشُ يَسْعَى
والدُّمُوعُ ٱلحِرَارُ تَنْهَلُّ طَوْعَهْ . . .

(١) الأفاويق : جمع الفيقة وهو اللَّبن الذى يجتمع فى الضَّرْع . والجمع : فيق وفِيَق وأَفْواق وأفاويق .

مِحْنَة العَالِم

● ١٣ مارس سنة ١٩٧٠

فى هذا اليوم توقَّف قلب العالم المفكِّر الدكتور « أحمد فؤاد الأهوانى » فى مدينة « الجزائر » حيث فارق وطنه إليها ليؤدِّى رسالةً قوميَّة هى تعريب التعليم الجامعىّ هناك كما ذكر فى آخر رسالة منه إلىَّ . . . وكان قد رحل إلى « الأُرْدُنّ » عامَيْن بعد إحالته إلى المعاش .

غُرْبَةُ الأَهْلِ والسَّكَنْ ... مِحْنَةُ العالِمِ الفَطِنْ
بَعْدَ أَنْ جاوَزَ المَدَى ، ... واعْتَلَى ذُرْوَةَ الزَّمَنْ
امْتَطَى صَهْوَةَ الفَضَا ... ءِ ، جاذِباً عُقْدَةَ الرَّسَنْ
فى مَشِيبٍ ، وفى ضَنًى ... يَحْطِمُ الرُّوحَ والبَدَنْ
رِحْلَةٌ بَعْدَ رِحْلَةٍ ... دافعاً أَفْدَحَ الثَّمَنْ
وإِذَا الحُرُّ لم يَجِدْ ... راحةَ النَّفْسِ فى الوَطَنْ
رَضِىَ البُعْدَ كارهاً ... عِيشَةَ الكُفْرِ والغَبَنْ
ومَضَى وهو جارِعٌ ... أَىَّ كأْسٍ مِنَ الشَّجَنْ...
قَدَرٌ ساقَ خَطْوَهُ ... حَيْثُ لا تُحْمَلُ المُؤَنْ
ثُمَّ غابتْ عن الرُّؤَىٰ ... ما طَوَتْهُ يَدُ المِحَنْ...

فَيْلَسُوفٌ مُفَكِّرٌ ، ثاقِبُ الرَّأْيِ مُتَّزِنْ
مِنْ « فِلاَطُونَ » رِيُّهُ ، و « ٱبْنِ سِينَا » قد ٱخْتَزَنْ
مَدَّ باعاً قَوِيَّةً للجَدِيدَاتِ ، فَٱحْتَضَنْ
ومَضَى فى طَرِيقِهِ واضِحَ النَّهْجِ والسَّنَن
وأَدِيبٌ مُنَمِّقٌ ، بِٱلفَصِيحَاتِ مُفْتَتِنْ
عِلْمُهُ – فى جَلاَلِهِ – بأَخِي الشِّعْرِ يَقْتَرِنْ .. (١)

●

يـا فُؤَاداً مُبَـرَّأً مِنْ غُرُورٍ ، ومِنْ ضَغَنْ
بَيْنَمَا أَنْتَ قِمَّةٌ تَتَسَامَى لها القُنَنْ !

---

(١) أخو الشِّعر : النثر ، إذْ كان أسلوب الفقيد حين يكتب فى العلم والفلسفة أسلوباً رشيقاً .

لا أَزْدِهَاءٌ ، كَمَنْ نَرَى ... مِنْ رُسُومٍ ، ومِنْ سِحَنْ !
قد أَضَاعَتْكَ حِقْبَةٌ ... للثَّمِينَاتِ لم تَصُنْ
كم هَدَمْنَا مَعَالِماً ... ضَوَّأَتْ ظُلْمَةَ الدَّخَنْ !
وَطَوَيْنَا صَحَائِفاً ... بَعْدَ أَنْ ذِعْنَ فى عَلَنْ !
ووَأَدْنَا مَوَاهِباً ... وَهْىَ تَزْهُو وتَرجَحِنّ (١) !
غَيْرَةً ، أو تَحَاسُداً ... أو بِخَافٍ مِنَ الإِحَنْ...
بِتَقَالِيدَ رَثَّةٍ ... وقَوَانِينَ كالدِّمَنْ (٢) ...
بالمَعَاشِ الَّذِى مَضَى ... وَهْوَ سَيْفٌ على الفِطَنْ
وَزَنَ العِلْمَ والحِجَى ... بِسِنِى العُمْرِ مَنْ وَزَنْ
كَيْفَ !... والعِلْمُ غايةٌ ... لم تُحَدَّدْ بأَىِّ سِنّْ

(١) تُرْجحنّ : تتسع وتنبسط .
(٢) الدُّمن : جمع الدِّمنة وهى آثار الدار ، كناية عن القِدَم .

والتَّجارِيبُ ثَرْوَةٌ تَتَنَمَّى ، وتُخْتَزَنْ . . .
لو قَدَرْنَا كُنُوزَنا ، ما مَضَى الرَّكْبُ أَوظَعَنْ

●

يا أَخاً كانَ وُدُّهُ حُلُماً ساقَهُ ٱلوَسَنْ !
كَيْفَ أَنْساكَ مُقْبِلاً ضاحِكَ السِّنِّ ، مُطْمَئِنْ !
كُنْتَ كالقَطْرَةِ الَّتى سَكَبَتْ صَفْوَها ٱلمُزُنْ
كُنْتَ كالزَّهْرَةِ الَّتى فاحَ مِنْ عِطْرِها ٱلغُصُنْ
كُنْتَ كالنَّغْمَةِ الَّتى ذَخَرَتْ سِحْرَها ٱلأُذُنْ
كُنْتَ كٱلبَسْمَةِ الَّتى شَفَّ ثَغْرٌ بها حَسَنْ
أَنْتَ حَيٌّ على ٱلمَدَى رَغْمَ مالُفَّ فى ٱلكَفَنْ...

●

يا غَرِيباً عن ٱلحِمَى ، وبَعِيداً عن ٱلوَطَنْ . . !
يَحْضُنُ الصَّمْتُ حُجْرَةً أَنْتَ فيها بِلاَ سَكَنْ[1] !
عِشْتَ فيها كفِكْرَةٍ عَىَّ عَنْ فَهْمِهَا الزَّمَنْ
عُدْتَ لِلجَنَّةِ ٱلَّتِى تَتَلَقَّاكَ . . . فَاطْمَئِنْ . . . !

(١) السَّكَن : الزوجة وكل ما يسكن إليه ويستأنس به .

خَلِيفةُ « حافظ »

● في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٧٢ عقد الموت لسان الصديق الحبيب الشاعر الكبير « محمود غنيم » الذى كان يعلو فوق منابر القول نصف قرن يجلجل فيذكّر السامعين بمواقف الشاعر حافظ إبراهيم . . . وأوقف الموت نبض قلب كان يزخر بشعر صافٍ فيّاض نابع من صميمه . . . وطوى مجلس أُنسٍ كنّا نعقده للظرف والفكاهة تهوى إليه القلوب كان هو فيه المجلّى .

بَلَغَ السَّيْرُ بالغَرِيبِ مَدَاهُ
فرَمَى عِبْئَهُ ، وألْقَى عَصَاهُ
وهَوَى مُسْلِماً إلى الأَرْضِ جِسْماً
هَدَّ مِنْهُ الكِفَاحُ كُلَّ قُوَاهُ
وانْتَهَتْ رِحْلَةٌ تَحَمَّلَ فيها
حُلْوَ آمالِهِ ، ومُرَّ شَجَاهُ
وهْوَ فى الحَالَتَيْنِ ضَاحِكُ سِنٍّ
ساخِرٌ بالهُمُومِ رَغْمَ أَسَاهُ
غالَهُ غائلُ النُّفُوسِ اخْتِطَافاً ،
وابْتِسَاماتُهُ وَعَتْهَا الشِّفَاهُ . . .
فطَوَى صَفْحَةً مِنَ الشِّعْرِ والعِلْـ
ـمِ وحُلْوِ الإِينَاسِ . . . لَمَّا طَوَاهُ

كان مِلْءَ الأَسماعِ مِنْ نِصْفِ قَرْنٍ
حِينَما كان للقصَائِد جَاهُ
حَلَّ فيها مَحَلَّ «حافِظِ إبْرَا
هِيم» . . . يَبْدُو بِرُوحِهِ وسَنَاهُ
إن بَدَتْ فَرْحَةٌ جَلاَها غِنَاءً ،
أَوْ هَوَى كَوْكَبٌ مَضَى فَرثَاهُ
مِلْءُ كَفَّيْهِ ثَرْوَةٌ مِنْ ثَرِيِّ ٱلْـ
ـقَوْلِ تُنْبِى عن جاهِهِ وغِنَاهُ
الفَصِيحُ البَيَانِ حِينَ تَهَاوَتْ
بِرُطَانَاتِ عُجْمَةٍ فُصْحَاهُ
وٱلقَوِىُّ ٱلبِنَاءِ حين تَدَاعَتْ
أُسُسُ الشِّعْرِ مُنْذِرَاتٍ بُنَاهُ

نَفَسٌ كان فى ٱلقَدِيمِ لـ « مِهْيَا
رَ » طَوِيلٌ فى عَصْرِنَا أَحْيَاهُ[1] . . .
أَسْلَمَتْهُ أَرْسَانَهُنَّ ٱلقَوَافِى ؛
وٱلقَوافِى كم شاعِرٍ تَعْصَاهُ !
ساقَها فى مَجَالِ قَوْلِهِ طَيِّعَاتٍ
راقِصَاتٍ على صَدَى نَجْوَاهُ
واحْتَوَى فى خَيَالِهِ أَدَبَ ٱلعُرْ
بِ تُرَاثاً . . . مُقَدَّساً ما ٱحْتَواهُ
ووَعَى أَرْفَعَ ٱلبَيَانِ مِنَ « ٱلقُرْ
آنِ » يُضْفِى جَلَالُهُ ما وَعَاهُ

(١) هو أبو الحسن مهيار بن مَرْزَوَيْه الدَّيْلَمِىّ المتوفى سنة ٤٢٨هـ . كان مجوسيًّا وأسلم على يد أستاذه الشريف الرَّضِىّ . وهو شاعر كبير ، وفى معانيه ابتكار ، وفى أسلوبه قوَّة ، كانت قصائده طويلة ، وقد اتَّبع « غنيم » نهجه فى نَفَسه الطويل .

ثُمَّ أَجْرَى يَرَاعَهُ فى ٱقْتِدَارٍ
بِالَّذِى قد جَرَى بِهِ أَصْغَرَاهُ[1]
دِقَّةُ الصَّائِغِ الصَّنَاعِ ، إِذَا ما
صاغَ مِنْ جَوْهَرِ ٱلكَلَامِ حِلاَهُ
لا يُبَالِى أَنْ قِيلَ : هٰذَا قَدِيمٌ . . .
كم قَدِيمٍ لم يَبْلُغُوا مُسْتَوَاهُ !
القديمُ الَّذِى تَعِيشُ عَلَيْهِ
أُمَّةٌ ، مَجْدُها رَفِيعٌ ذُرَاهُ
عاشَ يَطْوِى الزَّمَانَ : قَرْناً فَقَرْنًا
وهو تَسْعَى إِلى الخُلودِ خُطَاهُ . . . !

---

(١) أصغراه : أى قلبه ولسانه .

خَلَّفُوهُ لنا . . . وكلُّ كَرِيمِ ٱلعِرْ
قِ يُحْيِى ٱلذى بَنَى أَبَوَاهُ . . .
عَيْبُهُمْ – فى ٱعْتِقَادِهِمْ – أَنْ تَمَادَوْا
فى مَدِيحٍ ، فأُغْرِقُوا فى دُجَاهُ
ذاكَ ذَنْبُ ٱلعَصْرِ الذى عايَشُوهُ
حَيْثُ مازَالَ طائفٌ مِنْ رُؤَاهُ
حَسْبُنَا مِنْهُ أَنْ نَرَى لَمَحاتٍ
كاشِفَاتٍ أَخْبَارَ مَنْ لانَرَاهُ !
ما عَلَى صَاحِبِى جُنَاحٌ إِذَا ما
هاجَ وُجْدَانَهُ كَرِيمٌ رَعَاهُ
لا نِفاقاً ، ولا رِيَاءً ؛ ولٰكِنْ
صِدْقُ إِحْسَاسِهِ ٱلَّذِى أَوْحَاهُ

وأَسِيرُ ٱلمَعْرُوفِ أَكْرَمُ عِنْدِى
من طَلِيقٍ يَنْسَى ٱلَّذِى يُعْطَاهُ
كان – وٱللهِ ! – صُورَةً مِنْ وَفَاءٍ
لا يُغَشَّى صَفَاؤُهُ أو يُشَاهُ[1]...

●

يا أَخاً كُنْتَ كالنَّسَائِمِ رُوحاً ؛
ذَهَبَ الرُّوحُ تارِكاً ذِكْرَاهُ...
وأَخاً كُنْتَ بالَوَدَاعَةِ ظِلاًّ
فى حَرُورٍ من دَهْرِنَا نَصْلاَهُ

(١) يُشاهُ : يُشَوَّهُ .

إنْطَوَى مَجْلِسٌ ، وغابَ أَنِيسٌ
كنتُ أَنْسَى ٱلأَسَى لَدَى لُقْيَاهُ
فَٱللَّيالِى ٱلَّتِى أَنَرْنَا دُجَاهَا
بِسَنَا ضِحْكِنَا وعالِى صَدَاهُ
عُدْنَ ذِكْرَى كَسِيرَةَ ٱلقَلْبِ شَجْوًا ،
وَاجِمَاتٌ لِرَاحِلٍ عن حِمَاهُ
لَسْتُ أَنْسَاهُ مُصْبِحاً بِجَدِيدٍ
مِنْ مُزَاحٍ ، ومُمْسِياً بِسِواهُ[1]
يُضْحِكُ الدَّامِعِينَ فى ظُلَمِ ٱلهَمِّ ،
وتُضْوِى فُؤَادَهُ بَلْوَاهُ . . .

---

(١) ظلَّ – رحمه الله – يقرأ علىّ فى التليفون ، خلال أيام أربعة قبل وفاته بثلاثة أيام ، مداعبات شعرية فى أحد أصدقائنا الأعزاء .

كاتِماً جُرْحَهُ ، وفى جانِبَيْهِ
وَخزَاتٌ يُؤْذَى بها جَانِبَاهُ
ماكَرِهْنَا فُكَاهَةً منهُ نالَتْ
أَقْرَبَ النَّاسِ ، لا يُرِيدُ أَذَاهُ
كان كالنَّحْلِ لاَسِعاً لِذَوِيهِ
وهُمُ يَشْتَهُونَ شُهْدَ جَنَاهُ
لم يَضِقْ مَرَّةً ، وماضاقَ مِنَّا
واحدٌ بالَّذِى تَدُورُ رَحَاهُ . . .
حَسْبُنا أَنَّنا نُذِيبُ أَسَانَا
بَعْدَ أَنْ شِيبَ بالدُّمُوعِ ٱلمِيَاهُ
فى ٱبْتِسَامَاتِ ساخِرِينَ تَعَالَوْا
فَوْقَ حُزْنٍ قد أَظْهَرَتْهُ ٱلجِبَاهُ

وإذَا ٱلجِدُّ قال : هَيَّا ! . . . أَجَبْنَا
دَعْوَةَ ٱلجِدِّ ، وٱكْتَوَيْنا لَظَاهُ . . .

●

إِيهِ ! يا صَامِتاً على شَفَتَيْهِ
مَنْطِقٌ طَلْسَمَ الرَّدَى مَعْنَاهُ !
عَيَّ – بَعْدَ ٱلإِفْصَاحِ – هٰذا ٱلمُسَجَّى ،
وٱلأَغَارِيدُ خَلْفَهُ تَنْعَاهُ . . . !
أُسْلِمَتْ للهُمُودِ نَبْرَةُ حَيٍّ
كان يَشْدُو ، وأُغْمِضَتْ مُقْلَتَاهُ
فَٱسْتَرِحْ ، فَٱلهُمُومُ فارَقْنَ – قَسْراً –
راحِلاً ماضِياً إِلَى مَثْوَاهُ . . . !

نَحْنُ نَمْشِى ، والنَّعْشُ يَحْمِلُ دُنْيَا
سَوْفَ تَدْرِى فَرَاغَها دُنْيَاهُ
شاعِرٌ قد مَضَى ، وجِسْمٌ يُوَارَى
فى الثَّرَى . . . طَيَّبَ ٱلإِلٰهُ ثَرَاهُ !

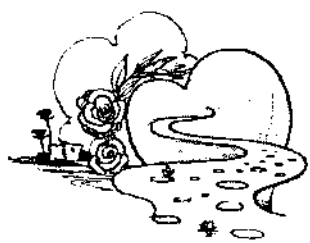

شاعر الرِّثاء

●

١٠ يولية ١٩٧٣

● فى هذا اليوم سكتت الأنّات الحائرة لتستريح روح صاحبها الشاعر الكبير الأستاذ عزيز أباظة إلى جوار الروح التى سكب عليها دموعه بكاءً لاينضب ، وفجَّر قلبه لوعاتٍ لاتخمد ، وأنّاتٍ حائرة لاتهدأ رثاءً نابضاً فى زوجه . وانطوت حياة « عزيز أباظة » شاعر الرثاء ليعيش ذكرى وفكرة كتب لها البقاء .

● وهذه القصيدة أُلقيت فى حفل أقيم لتأبينه فى العاشر من أبريل ١٩٧٤ . وقد كتبتُها وأنا طريح الفراش لأقدّم إلى روح هذا الصديق العزيز بهذا الرثاء بعض مايجب من الوفاء .

●

مِنْ فِرَاشِ الضَّنَى ، ومن غُلِّ أَسْرِهْ
صُغْتُ هذا الرِّثاءَ يَغْلُو بِحُرِّهْ
وأنا الصَّادِقُ الوَفِىُّ ، وقَلْبِى
لَيْسَ يَنْسَى الوَفَاءَ آخِرَ عُمْرِهْ

لم يُقَيِّدْ وَفاءَهُ بِرَجَاءٍ
دُنْيَوِىٍّ فى سِرِّهِ أَو بِجَهْرِهْ
وعَزِيزٌ علىَّ إنْ جاءَ ذِكْرٌ
لِـ «عَزِيزٍ» ولم أُشارِكْ بِذِكْرِهْ
فـ «عَزِيزٌ» فى صَفْحَةِ الْقَلْبِ رَسْمٌ
لَيْسَ يُمْحَى على الزمانِ ومَرِّهْ
و «عَزِيزٌ» فى مِسْمَعِ الدهرِ لَحْنٌ
لن تُوَارِى الرياحُ أَصْدَاءَ نَبْرِهْ
صُحْبَةٌ لم تَطُلْ، ولكنَّ حُبًّا
طَوَّلَتْ حَبْلَهُ ٱبتسامةُ ثَغْرِهْ
كان حُلْوَ اللِّقاءِ، يَخْلُقُ جَوًّا
شاعِرِيًّا بأُنْسِهِ وببِشْرِهْ

خُلُقٌ كالرَّبيعِ يَزْهُو ائْتِلاَقًا
بين أَعْطَارِهِ ورِقَّةِ زَهْرِهْ
وسُمُوقٌ فى[1] الخَلْقِ أَضْفَى جَلاَلاً
ظِلُّهُ فَوْقَ شِعْرِهِ، فَوْقَ نَثْرِهْ
طَلْعَةٌ تُمْسِكُ النُّجومَ فتَجْرِى
فى يَدَيْهِ كأَنَّها نَبْضُ شِعْرِهْ
أَلَقٌ يَبْهَرُ العُيونَ، ومَعْنًى
مَيَّزَتْهُ بهِ رَحَابَةُ فِكْرِهْ...
شاعرٌ صادِقُ الشُّعورِ، جَلَتْهُ
رَبَّةُ الحُزْنِ فى حَرَارِةِ جَمْرِهْ

---

(١) السُّمُوق: الطول والارتفاع.

ثُمَّ قالت لهُ : تَمَزَّقْ لُحُوناً
دامِيَاتٍ ! . . . فلَمْ يَضَنَّ بصَدْرِهْ
شَدَّ أَضْلاَعَهُ إلى مَرْثِيَاتٍ
قاذِفاتٍ شُوَاظَها بَعْدَ صَهْرِهْ
كَلِمٌ نابعٌ من القلبِ . . . حَيٌّ
لم يُزَيَّفْ لِراقِدٍ تَحْتَ قَبْرِهْ
حائراتُ الأَنَّاتِ[1] تَهْتِفُ باللَّيْـ
ـلِ : تَمَهَّلْ ! لِيَسْتَتِرْنَ بِسِتْرِهْ
مُخْفِيَاتٌ عن الصِّغَارِ اليَتَامَى
لَوْعَةَ الناشِجِ الغَرِيقِ بزَفْرِهْ

---

(١) إشارة إلى أول ديوان نشره الفقيد باسم « أَنَّاتٌ حائرة » جمع فيه مراثيَهُ فى .

واللَّيالِى يَنْظُرْنَ فى لَوْحَةِ الغَيْـ
ـبِ ، لِيَكْشِفْنَ عن مُخَبَّإِ سِرِّهْ
كان سِفْرُ الخُلُودِ قد خَطَّ أَمْراً . . .
ماالَّذِى خَطَّهُ الخُلودُ بسِفْرِهْ . . ؟
إِنَّهُ شاعرٌ يَشُقُّ طَرِيقاً
صَعْبَةً . . . والدُّمُوعُ مَطْلَعُ فَجْرِهْ
تَبْتَغِيهِ عَرائسُ الشِّعْرِ إِلْفاً ،
بَعْدَ أَنْ غُيِّبَتْ أَلِيفَةُ قَصْرِهْ
. . . إِيهِ ياشاعرَ الرِّثاءِ تَحَمَّلْ
مابَلاكَ الزَّمانُ منهُ بغَدْرِهْ !
إِنَّ فى المَجْدِ مِحْنَةً وامْتِحاناً ،
مُزِجَ الحُلْوُ فى طِلاَهُ بِمُرِّهْ

فَاجْرَعِ الكأْسَ ، واسْكُبِ الشِّعْرَ لَحْناً
يَفْتِنُ السَّمْعَ والفُؤَادَ بِسِحْرِهْ . . .
لَسْتُ أَنْسَاهُ ، والمَعَاوِلُ تَهْوِى
فوق جُدْرَانِهِ لِتَوْهِينِ قَدْرِهْ
حِينَمَا هَبَّ للدِّفاعِ عن (الضَّا
دِ) ، وهَبَّ الضَّلالُ من شَقِّ جُحْرِهْ
وهو يَمْشِى كأَنَّهُ أَلِفُ (اللهِ)[1]
شُمُوخاً ، ولم يَهِنْ عَزْمُ سَيْرِهْ
إِذْ رأَى (الضَّادَ) يُسْتَبَاحُ حِمَاها
واللِّسانَ الفَصِيحَ يُطْوَى بِغَيْرِهْ

(١) تشبيه للفقيد فى طول قامته وشموخه بالألِف المفردة فى اسم الجلالة .

لُغَةُ الْمَرْءِ عِرْضُهُ . . . وحَرَامٌ
أَنْ يُبِيحَ الإِنسانُ أَقداسَ طُهْرِهْ . . .
قد عَبَرْتَ الحياةَ قَبْلَ عُبُورٍ
هَزَّ تَحْقِيقُهُ الوُجُودَ بأَسْرِهْ[1]
لو تأنَّى بكَ القَضاءُ شُهُوراً
لانْجَلَى الشِّعرُ عن يَتِيمةِ دَهْرِهْ
نَمْ قَرِيراً ! فإنَّ شَعْبَكَ يَصْحُو
مِنْ خُمَارِ الدُّجَى وتَهْوِيمِ سُكْرِهْ
نافضاً عنهُ ماضِياً مُكْفَهِرًّا
كادَ يَهْوِى بهِ إلى غَوْرِ كُفْرِهْ

---

(١) إشارة إلى وفاة الفقيد قبل يوم العبور العظيم بثلاثة أشهر.

يَوْمُ «أُكتوبرَ» العظيمُ تَلاَقَى
فى جَلالِ الذِّكْرَى بـ«وَقْعَةِ بَدْرِهْ»
قد حَطَمْنَا بهِ الغُرورَ المُغَشَّى
وكَشَفْنَاهُ عن مُدَلَّسِ أَمْرِهْ...

●

لَسْتُ أَنْسَاهُ فى أَواخِرِ عُمْرِهْ
وهو يَرْثِى الرِّفاقَ أَعلامَ عَصْرِهْ
راوِياً فى الرِّثاءِ ماعَرَكُوهُ،
ذاكراً بالأَسَى مآسِىَ (مِصْرِهْ)
ناعِىَ الحَقِّ والكرامةِ والأَمْـ
ـنِ بطَغْوَى تَقُضُّ مَضْجَعَ حُرِّهْ[1]

(١) الطَّغْوَى: الطغيان. قال تعالى: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بطَغْوَاهَا».

نَمْ قَرِيراً ! . . . فإنَّ عَهْداً جَدِيداً
شَقَّ ثَوْبَ الظَّلامِ ساطِعُ فَجْرِهْ
إنَّ «مِصْرَ العُبُورِ» تَشْهَدُ حُكْماً
خالعاً بَطْشَهُ وسُلطانَ قَهْرِهْ
حِينَ يَحْنِى وُلاتُهَا الرَّأْسَ للشَّعْـ
ـبِ ، وتَعْلُو للشَّعْبِ هامةُ كِبْرِهْ
حَيْثُ لا ذُلَّ للأُبَاةِ ، ولا حَجْـ
ـرَ لِرَأْيٍ بِغَيْرِ داعٍ لحَجْرِهْ
لاتَدُقُّ الأَبوابَ فى الفَجْرِ كَفٌّ
تَنْتَزِعُ الآمِنَ الوَدِيعِ بعُقْرِهْ
ليس لِلْحُكْمِ أن يَجُورَ على الرَّأْ
يِ ، ولا الرَّأْيِ أَنْ يَجُورَ بدَوْرِهْ

إنَّ للرَّأْيِ حَدَّهُ ، فإذا ما
جاوَزَ الحَدَّ ، كان أَدْعَى لِزَجْرِهْ
نَحْنُ كُنَّا بُنَاةَ شُورَى اسْتَقَامَتْ
أُسُسُ الحُكْمِ فَوْقَ ثابِتِ ظَهْرِهْ
مُنْذُ سَنَّ الإسلامُ للنَّاسِ شَرْعاً
يَتَوَخَّى الصلاحَ فى كلِّ أَمْرِهْ

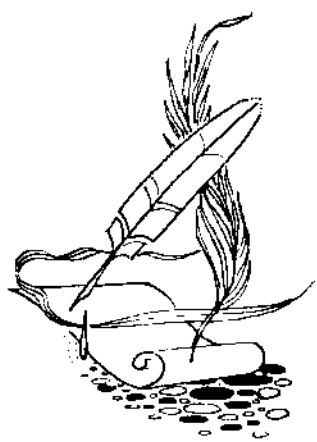

عاشق التُّراث

●

● ١٢ يناير ١٩٧٥

فى عصر هذا اليوم انطفأ فجأةً سراج وهّاج كان يشعُّ فى عالم التراث العربى ليكشف عن مُخبّآته . . . وانتهت بانطفائه حياة « محمد رشاد عبد المطّلب » الذى كان آيةً فذّة فى معرفة كنوز الفكر العربى فى شتّى مكتبات العالم ليترك فى نفوس محبِّيه ومقدِّريه لوعةً باقية ، وفى عالم المخطوطات الذى وقف حياته عليه فراغاً لايُسَدّ .

وَدَاعاً... وخَلْفَ النَّعْشِ باكٍ ومُطْرِقُ
وقَلْبِيَ مِنْ هَوْلِ الفَجِيعَةِ مُرْهَقُ
أَخِي . . . وعَزِيزٌ أَنْ أُوَدِّعَ ماضياً
عَزِيزاً له فى حَبَّةِ القَلْبِ مَوْثِقُ
رَحَلْتَ ولم تُزْمِعْ وَدَاعاً ؛ ولم تَكُنْ
لِتَنْسَى وَدَاعاً حِينَ تَمْضِى تُحَلِّقُ !
لقد كُنْتَ سَبَّاقاً إلى الوُدِّ راعياً ؛
وها أَنتَ نحو المَوْتِ تَجْرِى وتَسْبِقُ
بكَيْتُكَ قَبْلَ النَّعيِ ؛ حتى كأَنَّما
تَفَتَّحَ بابُ الغَيْبِ ؛ والغَيْبُ مُغْلَقُ
شُعُورٌ تَقَاضَانى البُكَاءَ ؛ ولم أَكُنْ
لأَعْلَمَ أَنَّ الوَهْمَ بالبَيْنِ يَنْعَقُ

شُدِهْتُ لهُ حتى كأنِّى مُسَحَّرٌ ؛
فلا الصَّمْتُ يَجْفُونِى ، ولا الفَمُ يَنْطِقُ
تَمُرُّ بِىَ الأَعوامُ ذِكْرَى أَسِيفَةً
عَلَيْهَا غَمَامَاتٌ مِنَ الحُزْنِ تُطْبِقُ
وأَمْسَحُ دَمْعاً هامِلاً بَعْدَ هامِلٍ
لِيَفْسَحَ للفَيْضِ الذى يَتَدَفَّقُ[1]
مَضَى الرَّكْبُ بالأَحبابِ من كُلِّ وُجْهَةٍ ؛
وغايةُ هذا الرَّكْبِ : هذا التَّفَرُّقُ

●

(١) يشير الشاعر فى الأبيات السابقة إلى حالة اكتئاب أُلِمَّتْ به ثم انهمار دمعه ، وأعقبت هذه الحالة خبر تليفونى من نجل الفقيد يعلن وفاة أبيه فجأة .

«رَشَادُ»!... وفى هذا النِّدَاءِ لَوَاعِجٌ
تُحَطِّمُنى ؛ والحُزْنُ بالنَّفْسِ مُحْدِقُ
عَرَفْتُكَ فى ضَحْوِ الشَّبِيبةِ مُقْبِلاً
علىَّ كغُصْنٍ مِنْ نَدَى الفَجْرِ يُورِقُ
كأنَّا افْتَرَقْنا مِنْ قُرُونٍ بَعِيدةٍ ،
فَلَمَّا الْتَقَيْنَا غابَ عنَّا المُفَرِّقُ...
وفى العالَمِ الرُّوحىِّ سِرٌّ مُخَبَّأٌ
عن العَقْلِ ؛ لا يَدْرِيهِ إلاَّ المُخَلَّقُ
عَرَفْتُكَ... والأيَّامُ حالِيَةُ الجَنَى ؛
ورَوْضُ الأَمانِى بالأَزاهِيرِ مُونِقُ
عَرَفْتُكَ.. والدُّنْيَا سُرُورٌ وبَهْجَةٌ ؛
وعُودُ الشَّبابِ الغَضِّ رَيَّانُ رَيِّقُ

عَرَفْتُكَ . . . والأسْقامُ عنَّا بَعِيدَةٌ ؛
فلا الجِسْمُ مَكْدُودٌ ، ولا الجَفْنُ يأْرَقُ
عَرَفْتُكَ فى أَصْفَى مَرَاحِلِ عُمْرِنَا ،
وأَنْتَ - كما أَنْتَ - الصَّفَاءُ المُرَوَّقُ
صَفَاءٌ على مَرِّ اللَّيَالِى وكَرِّها ؛
وبَعْضُ صَفاءِ الأَصدقاءِ مُرَنَّقُ ! (١)
وإخلاصُ قَلْبٍ - كالحقيقةِ - سَاطِعٌ ؛
فلا الزَّيْفُ يُلْقِى ظِلَّهُ ، والتَّمَلُّقُ
ووُدٌّ كأَسْمَى ما ٱلْتَمَسْتُ ؛ وصُحْبَةٌ
كأَكْرَمِ ما اسْتَصْفَيْتُ . . . والوُدُّ يَنْفُقُ (٢)

---

(١) مُرَنَّق : مُكَدَّر .
(٢) يَنْفُق : يَنْفَد .

وكَمْ صاحِبٍ يَنْسَى الوِدَادَ فُؤَادُهُ
إذا قامَ بَيْنَ الوُدِّ والنَّفْعِ خَنْدَقُ !
خَلا مِنْكَ وَجْهِي بَعْدَ أَنْ كُنْتَ بَسْمَةً
تَلُوحُ على وَجْهِ الزمانِ وتُشْرِقُ
وكُنْتَ كإقبال النَّسِيمِ إذا سَرَى
عَشِيَّةَ صَيْفٍ باللَّظَى تَتَحرَّقُ
لَطَافَةُ ظِلٍّ فى سَلاَسَةِ رِقَّةٍ ،
ومَمْضَةُ حُبٍّ بين عَيْنَيْكِ تُطْلَقْ
تكادُ إذا حَدَّثْتَ تَهْمِسُ وَادِعاً
كأَنَّكَ بالأَسْمَاعِ تَحْنُو وتَرْفُقُ(١)

---

(١) كان حديث الفقيد مع أصدقائه هادئاً حفيضاً .

وَدَاعةُ طِفْلٍ فى سَمَاحةِ خَيِّرٍ
يَكَادُ إذَا هَلَّ الصَّدِيقُ يُصَفِّقُ
إذا ماطَلَبْنَا مِنْكَ شَيْئاً تَهَلَّلَتْ
أَسَارِيرُ وَجْهٍ بالرِّضَا يَتَأَلَّقُ
أَيَادِيكَ لاتُنْسَى لَدَى كُلِّ باحِثٍ
هَدَيْتَ إلى ما لم يَجِدْهُ المُحَقِّقُ[1]
سَلَامٌ على أَعْوَامِ عُمْرٍ تَصَرَّمَتْ
وعادَتْ لنا ذِكْرَى مع القَلْبِ تَخْفُقُ !

●

(١) كان الفقيد – رحمه الله – آية فى الإسراع إلى إمداد الباحثين إلى المراجع إلى يلتمسونها فيما يحققونه من التراث .

تَعَمَّقْتَ فى بَحْرٍ من العِلْمِ زاخِرٍ
يَضِلُّ بِهِ السَّبَّاحُ حِيناً ويَغْرَقُ
فما زِلْتَ حتى أَسْلَمَتْكَ كُنُوزُهُ
مَفَاتِيحَها تَغْشَى حِمَاها وتَطْرُقُ
تَرُوحُ وتَغْدُو ، والتُّرَاثُ هِوَايَةٌ
تُغَرِّبُ فى تَجْمِيعِهِ وتُشَرِّقُ
كأَنَّك فيهِ عاشقٌ باتَ لَيْلَهُ
يُنَاجِي هَوَاهُ وهْوَ وَلْهَانُ شَيِّقُ
أَوَ انَّكَ فِيهِ عابدٌ مُتَبَتِّلٌ
قُنُوتٌ ، عَلَيْهِ مُصْبِحُ الفِكْرِ مُغْبِقُ
فَجَمَّعْتَ فى هٰذا الكِيَانِ شَوَارِداً
مُبَعْثَرَةً يَفْتَنُّ فيها المُنَمِّقُ

بِحَافِظَةٍ كانت عَجِيبةَ أَمْرِها
وَعَتْ مايَكِلُّ الفِكْرُ عنهُ ويُخْفِقُ
وأَصْبَحْتَ بَحْراً زاخِراً بفُنُونِهِ
له عُمْقُ هذا البَحْرِ ، بل أَنتَ أَعْمَقُ
وخَلَّفْتَهُ بَعْدَ الكِفَاحِ مُحيَّراً
إِذَا قِيلَ : أَيْنَ الكَاشِفُ المُتَعَمِّقُ ؟
تَرَكْتَ فَرَاغاً لَيْسَ يَمْلأُ غَوْرَهُ
مِنَ البَاحِثِينَ المُعْلِمِينَ فَيَلْتَقُ . . .

●

على الشَّوْكِ – كم أَدْمَاكَ ! سِرْتَ مُكَافِحاً
تُضَمِّدُ جُرْحاً بَعْدَ جُرْحٍ ، وتَلْعَقُ

وشِدْتَ على الصَّخْرِ العَتِيِّ مكانةً
تَطُولُ على الصَّخْرِ العَتِيِّ وتَسْمُقُ
تَخَطَّيْتَ ما سَدَّ الطَّرِيقَ ، ولم تَزَلْ
تُعَانِى الذى يُلْقِى الحَقُودُ المُعَوِّقُ
إلى أَنْ نَفَضْتَ الرَّاحَتَيْنِ من الَّتِى
تَشَبَّثَ بأَسْتِدْرَارِها مَنْ تَعَلَّقُوا
فَنَمْ هادِئاً فى عالَمٍ لَيْسَ هادِراً
بِظُلْمٍ ، وما فيهِ كُنُودٌ ومُحْنَقُ !
ونَمْ هانِئاً ! . . فالَيَافِعَانِ عَلَيْهِمَا
مِنَ اللهِ ظِلٌّ مُسْدَلٌ ومُحَلِّقُ
جَزَاءَ الَّذِى قَدَّمْتَ للنَّاسِ رَاضِياً ،
وإنَّ الذى قَدَّمْتَ بالشُّكْرِ أَخْلَقُ

لكَ الْحَمدُ مِمَّن طَوَّقَتْهُمْ صَنَائِعٌ ؛
ولن يُنْكِرَ المَعْرُوفَ جِيدٌ مُطَوَّقُ

سَلَامٌ على ذِكْرَاكَ فى كلِّ ساعةٍ
تَمُرُّ كعِطْرِ الوَرْدِ فى الفِكْرِ تَعْبَقُ . . !

يُكَافِئُكَ الرَّحْمٰنُ عن كلِّ خُطْوَةٍ
سَعَيْتَ لإِحْيَاءِ التُّرَاثِ ويُغْدِقُ

وعِشْتَ تُرَثًّا خالداً فى نُفُوسِنَا ،
يُطِلُّ على أَجْوَائِنا ، ويُحَلِّقُ . . .

فهرس

صفحة

الإهداء ٥
مسافر بلا حقائب ٧
ذِكْرَى ١١
القياس ١٤
حُبُّ الحياة ١٩
قصائدى الأخيرة ٢١
زادُ المُسَافر ٢٤
أُخُوَّة كالصَّلاة ٣٠
أخٌ كالأذان ٣٣
مِحَنَة العالِم ٣٩
خَلِيفَةُ «حافظ» ٤٥
شاعر الرِّثاء ٥٦
عاشق التُراث ٦٧

رقم الإيداع		١٩٨٠/٤٧٣٦
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٣٧-٥٩-٠	ISBN

١/٨٠/٤٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)